

على هامش الحرب

## الطابور الخامس في القرآن المنافقون

للأستاذ عبد الرزاق إبراهيم حميدة

- ٤ -

لم ظهر النفاق بالمدينة ؟ - رأس المشائين - أعمالهم  
وصفاتهم زمن السلم - إظهار الإسلام وإخفاء الكفر  
الظن في النبي وآله - السعي في التفريق بين المسلمين

قدمنا في المقال الثاني والثالث أن الجماعة الأولى من الطابور  
الخامس في القرآن هم اليهود، وذكرنا بتفصيل مقدار خطرهم  
وضررهم على النبي ودينه وأصحابه، والنوع الثاني أو الجماعة الثانية  
هم المنافقون :

كان بجانب لليهود جماعة من أهل المدينة ومن حولها من  
الأعراب تعمل جهدها سرّاً وجهراً على إضعاف الإسلام وتود  
أن يفتى المسلمون وتذهب ربحهم . أولئك هم المنافقون الذين  
لم يكن لهم وجود وعمل إلا بعد الهجرة ، ويقول النووي إن

الاجتماعية والخلقية والوطنية الباشرة ، التي لا تتفق وطبيعة  
الفنون الحرة

وعلى ذكر الدعوات الوطنية ألاحظ أن أغانينا وأناشيدينا  
الوطنية التي تذاع جيماً وبدون استثناء تدل على فقرنا في الروح  
الوطنية السالفة من حيث يريد مؤلفوها وملحنوها ومغنيوها إظهار  
هذه الوطنية . ففى في ألفاظها وممانيتها وتلحينها نسيج أجوف  
يدل على وطنية « قشيرة » ليست مطمئنة إلى عمقها وهديتها  
و « طبيعتها » . والوطنية الرشيدة المميقة المطمئنة لا تحتاج  
إلى كل هذا الضجيج في اللفظ والمعنى ، ولا تستمد القوة من  
الصياح والزعمين ، إنما هذه أشبه الأشياء بقوة الضعيف الذي  
الذي يحس ضعفه فيملاً الدنيا صياحاً ، وينفخ أشداقته ، ويطوح  
ذراعيه في الفضاء لإرهاب خصمه قبل أن يشبك معه في نضال  
يشمر بضعفه عنه . وهي لا تريد على قول « فتوة الحارة » :  
« والله ما تقرب لي لأخركمك » .

التفان كلمة لم توجد في الجاهلية ، وإن القرآن قد جاء بها وصفاً  
لطائفة « تبطن الكفر وتظهر الإيمان » رغبة في الاستفادة  
من منافع المسلمين ، وفراراً من أثر الهزيمة إذا دارت على المؤمنين  
دائرة الحرب ، وأمثالاً في استئصال النبي ودينه بطريقة مستورة  
أما سبب ظهورهم بالمدينة دون مكة ، فهو أن النبي قام يدعو  
إلى دين الله بمكة وهو وحيد ، فمارضه أكثر أهلها وبخاصة  
الأشراف منهم حتى أشراف عشيرته الأقرين ، فلم تكن بالدين  
تخلفوا عنه - وهم أهل للشرف والعزة بمكة - حاجة أن ينافقوا ؛  
وياعد بينهم وبين الدخول في الإسلام سراً خوفاً من ضياع  
مركزهم الأدبي وسلطانهم القبلي وتمسكهم بما كان عليه  
آبائهم من دين وعادات

وكان الأمر على العكس من ذلك بالمدينة ، فقد أسلم الكثيرون  
من ساداتها وكبرائها وتبعهم أكثر أهلها ، وزاد الإسلام فيها  
قوة بمن هاجر إليها من السابقين الأولين من المهاجرين ، ورآيا  
عدد المسلمين فيها على من عدّاهم ، فشر التخلّفون عن الدين  
الجديد بضعفهم وعدم استطاعتهم المجاهرة بما في قلوبهم ، ورأوا  
أن النفاق أسلم مائة وأشدّ خطراً وأعظم أثراً ، ورأوا من  
الحكمة أن يقولوا : « آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » ، وأن  
ينتظروا للفرص السانحة لظن المسلمين كلما كان ذلك ممكناً

والرجل القوي حقاً لا يحتاج إلى هذا التهديد  
ولم ألس في أغنية واحدة مما أذيع حقيقة الوطنية التي  
لا يحسها صاحبها لفرط تنظّلها في نفسه ، وعمق جنورها  
في شعوره ، حتى لكأنها طبيعة كامنة فيه ، إنما هي ألقاظ  
مخشودة ، كما يجمع الخائف جميع أسلحته ويكومها أمامه ، بدل  
أن يدعها في مكانها ويأخذ منها ما يحتاج إليه في اللحظة المناسبة  
وإن أغنية واحدة يحدث فيها المترنم بها نفسه عن ملاحب  
صباه في وطنه ، ومطرح أمانيه ، وذكرات أجداده ، ويتمنى  
بطبيعة بلاده الجميلة وشمسها وخضرتها ، لأفضل في غرس بذور  
الوطنية وإعنائها في نفسه وإحساسه بمعنى الوطن من السيوف  
والبنود والهيبة . . . إلى آخر هذا الضجيج  
ولن يفهم مثل هذا التوجيه إلا القليلون ، وإنما كل رجائنا  
متملق هؤلاء القليلين !

(حلوان)

سيد قطب

على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تمجيبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسون كل صيحة عليهم ، هم المدوء فاحذرهم قائلهم الله أنى يؤفكون »  
وأما طمنهم في النبي فكان كثيراً ، وكان من اللطمن الذي لو ثبت لكان هادماً للرسالة ، وقاضياً على صاحبه ، فكانوا يهتمونه بأنه يأخذ بعض المفاتيح خفية ويستأثر به على غير علم من أصحابه . روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين ، فقال بعض المنافقين : لعل رسول الله أخذها ، فنزل قوله تعالى : « وما كان لنبى أن ينزل ، ومن ينزل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »

ولم يدم آل البيت من مطاعنهم ، فقد اشتركوا في حديث الإفك ، وادعوا على عائشة أنها خانت النبي ، وكان الذى تولى كبر هذا الإفك من المنافقين ، وهو ابن أبى أما حديث الإفك فهو أن الرسول الكريم كان يأخذ معه بعض نسائه في اللزوات ، وكانت عائشة معه في غزوة بني المصطلق ، وكانت صغيرة السن ، خفيفة الجسم ، فنزل الجيش ذات ليلة ، ثم ارتحل ، وحمل هودج عائشة على جملها ، ولم يدر حاملوه إن كانت فيه أم لا .

وكان يجيء وراء جيش المؤمنين صفوان بن المطلب يحمل ما يكون قد تخلف من الجيش ، فلما رآها غض بصره ، وأركبها ناقته ، وعاد بها إلى المدينة . فلما مر بابن أبى قال : من هذه ؟ قالوا عائشة . فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، ثم قال : امرأة النبي باتت مع رجل ثم جاء بقودها ، وانتشرت مقالته ، وسمع النبي الخبر ، فأحزنه ذلك أشد الحزن ، لأنها كانت أحب نسائه إليه ، فهى بنت الصديق صاحبه في النار ، ورفيقه في الهجرة ، وهى التى اختارها الله لنبيه ، وزوجها له بوحيه . فما هذا ؟ سبحانك ! هذا بهتان عظيم !

استشار النبي أصحابه في الأمر ، فأشار بعضهم بطلاقها ، ووطن بعضهم خيراً ، ولم يشك في طهارة بيت النبوة ، ومرضت عائشة زمناً وهى لا تدري من أمر هذا الإفك شيئاً . وحزن أبو بكر أشد الحزن ، وحزن المسلمون حزناً عظيماً ، وتطرق للشك إلى نفوس بعض الناس . فكيف يكون الموقف إذا تطرق للشك إلى بيت النبوة ؟ وما يكون مركز المسلمين ، وهم عرب ، لمرض عندهم شأن أى شأن ؟ وهل يبقى ضماق الإيمان أتباعاً

وكان رأس المنافقين بالمدينة عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان شريفاً من أشرف يثرب ، يطمع في أن تكون له السيادة والحكم فيها ؛ فلما جاء النبي إليها وخضع أهلها لسلطانه ودانوا بعبادته وعقيدته ، ضاعت للفرصة من ابن أبى ، وأحزنه أن يكون ضياع سلطانه المنتظر ، وخيبة أمله في السيادة ، آتياً من رجل غريب عن يثرب ، أخرجه قومه ، وشردوا أصحابه في الآفاق . ورأى من الحكمة أن يُدارى ، وأن يدخل فيما دخل فيه الأكثرون ظاهراً ، وإن لم يستطع أن ينزع من قلبه المرض الخلقى الذى ملأه نفاقاً ، وسألم الرسول ، وآمن بلسانه وفي نفسه ما فيها ، حتى إذا حدث ما يدهو إلى إظهار الكفر سارع فيه ونال من المسلمين بلسانه ومكابده ، وخنطم في الحرب ووقت للشدائد .

وقد بين القرآن صفات المنافقين عامة ، وهى صفات تدل على أنهم كانوا من أشد أنواع الطابور الخامس أذى ، وكان منهم في السلم أن يظهروا الإيمان ، وأن يطمئنا في النبي وآله ويفروا من حكومته ، ويرفضوها ، وأن يفرقوا بين المؤمنين أما الأمر الأول ، وهو حقيقة نفاقهم فقد ذكر بتفصيل في الآيات الكريمة : « ومن للناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا . وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . ولم يذاب ألم بما كانوا يكسبون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؛ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون »

وكانوا إذا جاءوا رسول الله أقسموا أنهم يشهدون أنه مرسل من ربه ليستروا نفاقهم بهذا القسم . وكان ابن أبى رجلاً جسيماً ضيقاً فصيحاً ذلق اللسان ، وكان قوم من المنافقين في مثل صفته ، يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيستندون فيه ، ولم جهارة الناظر وفصاحة الألسن ، فكان النبي ومن حضر يجيبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم ، فنزل قوله تعالى في السورة المكية باسمهم : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع

في سورة الحشر ، قال سبحانه « ألم تر إلى الذين ناققوا بقرولن لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب » وهم بنو النضير « لئن أخرجتم لنخترن جنم معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلم لننصرنكم . والله يشهد إنهم لكاذبون » فقد أخرج بنو النضير من المدينة ولم ينصرهم المنافقون ولم يخرجوا معهم بل بقوا في المدينة يخذلون المؤمنين في الحرب كما خذلوا بني النضير ، ويلتمسون المأذير لعمودهم عن الجهاد في سبيل الله كما سيأتي بيانه وكانوا « لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا يُنفقون إلا وهم كارهون »

ولم يسلم النبي من سخطهم عليه في توزيع الصدقات . فكانوا يهيمونه بدم المداة في تفريقها إذا لم ينلهم منها شيء . « ومنهم من يلمزك في الصدقات . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون » وكانوا يهيمون النبي بالفتنة ، وأنه يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ، وهم الذين قال الله فيهم : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن » ، قل أذنٌ خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »

وكانوا يسمون آيات الله ويهزؤون بها ، كما كان يفعل أهل مكة من المشركين . وكانوا يفعلون ذلك على مسمع من المؤمنين وفي مجالسهم ، فعنى الله المؤمنين عن مجالستهم ما داموا على هذا الاستهزاء ، وأوعد الكافرين والمنافقين أن يجمهم في جهنم ، وقال للمؤمنين : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم — في الإيمان لا في الكفر — إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا »

وكان منهم قوم ماهرون في إخفاء النفاق وستر الكفر إلى درجة عظيمة ، نفق أسرم حتى على النبي ، وهو البق القطن ، الذي لا يبدله أحد ذكاء وقوة فراسة ، وشدة فطنة ، وخطبه الله فيهم قائلا : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سننزلهم من حيث لا يشعرون ثم يردون إلى عذاب عظيم »

وفي غزوة بني المصطلق أرادوا أن يفرقوا بين المهاجرين والأنصار ، وأوعد عبد الله ابن أبي المهاجرين أن يخرجهم من

لحمد إذا ثبت على زوجته ما رُميت به من زور وبهتان ؟ لا بد من وحى يبرئها ، ويثبت طهارتها ، ويلعن من افتري عليها ، وبخاصة رئيس العصبة التي جاءت بالإفك ، وهو رأس المنافقين ، ونزل قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » فتبعت عفة عائشة وطهرها ، وخذ الرسول من جاءوا بالإفك حد القذف ، ولعنهم الله في الدنيا والآخرة ، إلا الذين تابوا . ورد الله كيد ابن أبي نحره ، ونجا الإسلام من الفتنة التي أرادها بالظلم في الصديقة بنت الصديق .

وكانوا يأبون الاحتكام إلى النبي وإلى كتابه إلا إذا كان على وفق هوام . وفي ذلك يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم تماثلوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . وأبى الله أن يقبل منهم إيمانا إلا إذا قبلوا حكومة الرسول عن طيب خاطر . فقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما »

وكانوا يستمون من المؤمنين ويرفون أسرارهم وخططهم الخزية ، وما في نفوسهم من ثقة بالفوز أو خوف واستعمار ، ويذسبون ذلك ويتحدثون به ، فيبلغ الأعداء ، فيكون في ذلك مفصدة ؛ قال الله سبحانه : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لسنه الله الذين يستنبطونه منهم »

وكان من أسباب نفاقهم أنهم كانوا يودون الرج من وراء هذا النفاق ؛ فإن انتصر المؤمنون قاسموم في المناجم ، وإن انتصر المشركون انحازوا إليهم ، وبينوا أن ذلك كان بفضل نفاقهم ، وأولئك هم الذين وصفهم الله للنبي الكريم في سورة النساء فقال : « الذين يتربسون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنمكم من المؤمنين ؟ »

وكانوا « يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم اللمزة ؟ فإن اللمزة لله جميعا » ويمدون الذين كفروا من أهل الكتاب أن يكونوا معهم على النبي وأن يخرجوا معهم من المدينة إذا أخرجهم المؤمنون منها ، كما بين الله سبحانه ذلك

نجرى ١

## عاصِفٌ مَلالٌ . . . !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

سَنَيْتُ مَقَامِي فَوْقَ الذَّرَا . . .

فَأَيَّانَ أَمْضِي غَدًا يَا تُرَى ١؟

سَنَيْتُ وَدَوَى بِقَلْبِي التَّلَالُ

كَمَا عَاصِفٌ فِي الدُّجَى زَجْرًا

أَمَائِي ضَبَابٌ ، وَخَلْفِي ضَبَابٌ

وَأُنْقِي غَشَى عَلَيْهِ الكَرَى

فَلَا فِي السَّمَاءِ أَرَى وَنَضَةً

تُرْمَى أَسَايَ ، وَلَا فِي الثَّرَى

وَخَوْلِي حَضِيضٌ ، بِأَوْحَالِهِ

تَخْبِطُ فِي الأَنَامِ رَكْبُ الوَرَى

وَخَتَّى ضِفَافُ الرُّؤَى عِنْفًا

كَبَا فِي حِمَاها لِوُجِي سُرَى

وَخَتَّى الخَلِيَالُ الدِّي هَزَنِي

وَأَرَعَشَ لِي سِجْرُهُ المِزْهَرَا ؛

تَبَرَّمْتُ يَا جِنُّ ، فامضِ بِهِ

رُقَاتَا مِنَ الصَّسْتِ لَنْ يُنْشَرَا ١١

وَمَا عَالَمُ الشَّمْرِ هَذَا النَّسِيحُ

سِوَى طَيْفِ حُزْنٍ بِعُمُرِي سُرَى

سَنَيْتُ ١ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا سَنَا

عَلَى ظَلَمَةِ الرُّوحِ قَدْ نَوَّرَا

مِنَ الحُبِّ ١ أَوْ مِنِ فَنَائِي الدِّي

يَقْمَعُ لِي فِي سَفُوحِ الذَّرَا . . .

الدينة . وتفصيل ذلك أنه بعد أنزام بني المصطلق بقيادة رئيسهم الحارث بن ضرار عندما يقال له « المرسيح » في السنة السادسة من الهجرة ، تراحم مهاجر وأنصاري على ماء ، فلطم المهاجر الأنصاري ، وكان هذا حليفًا لابن أبي ، فلما سمع ابن أبي الخبر أخذته حمية الجاهلية ، وأراد أن ينزى الأنصار بالمهاجرين ، وقال : والله ما تحببنا محمدًا إلا لنسلم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل : تَحَنَّنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ . أما والله لئن رجعنا إلى الدينة ليُخْرِجَنِي الأَعْرُ مِنْهَا الأَذَلُّ . وعنى بالأعر نفسه ، وبالأذل رسول الله . ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم ؟ أحللتهموم بلادكم ، وقاسمتهموم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد . فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث ، فقال له : أنت والله الدليل القليل في قومك ، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين . نجاب ابن أبي العاقبة . وأخبر زيد رسول الله الخبر ، فأراد عمر أن يضرب عنق ابن أبي ، فقال رسول الله : إذن ترعد أنف كثيرة بالدينة . أليست هذه النتيجة التي تحاشاها الرسول هي ما يسى إليه المنافقون ؟ فاقترح عمر أن يقتله رجل من الأنصار . فقال النبي الكريم : فكيف إذا تحدث للناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ ثم قال الرسول لعبد الله : أنت صاحب هذا الكلام ؟ خلف بالله ما قال ، وإن زيدا لكاذب . ولكن الله كذبه وصدق زيدا بقوله : «م الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى الدينة ليخرجن الأعر منها الأذل . والله المزة لرسوله وللمؤمنين ، ولكن للمنافقين لا يعلمون» هذه أعمال المنافقين ومكائدهم ، وغايتهم منها استئصال الإسلام وطرد النبي من الدينة ، وتغيير الناس من دينه بإشاعة السوء عنه وعن أهله ، وإنشاء ذلك المسجد آخر الأمر ليدبروا فيه دسائسهم ، ولكن الله كان لهم بالرساد ، وانكشفت حقائقهم ووجعوا المسلمون من شرم ؛ ثم هبوا عن مصافاتهم والانخداع بأقوالهم . أما أعمالهم التي رغبوا أن تجر الولايات على المسلمين في الحرب فوعدنا بها المدد للقادم .

عبد الرزاق إبراهيم حميدة